العذاب والأمل في سداسية الأيام الستة

بقلم سامي عطفه

كثيرا ما كنت اتساءل فيما مضى عما اذا كانت لدينا ، نحن ابناء الاقطار العربية الشقيقة ، فكرة وافية عن طبيعة المأساة الانسانية اليومية التي يعانيها الفلسطيني المقيم ، ذاك الذي تفصلنا عنه الاسوار والاسلاك الشائكة وثلاثة وعشرون عاما مرت على النكبة . كيف يحيا مواطن الدرجة الثانية ، هذا الذي اختار النفي داخل وطنه المغصوب، وما هي المسائل والهموم التي تشغله ، وما هي نظرته الى ذاته والى الغاصبين ..؟

وبطبيعة الحال فقد كان في وسع جيل النزوح ان يجيب ، والى حد ما ، على هذه التساؤلات . ذلك ان هذا الجيل الذي عاش بيننا بعد النكبة ، ونشأت بينه وبيننا صلات وروابط وثيقة جعلتنا ندرك مباشرة جراحاته وهمومه ومطامحه ، يستطيع ان يضيف بعض الخطوط، واللمسات التي تساعد على انارة صورة شقيقه المقيم . لان النازح والمقيم هما وجهان لحقيقة واحدة ، فكلاهما ضحية النكبة ، وكلاهما يحمل في وجدانه هذه المأساة المتجددة ، مأساة الانسان الذي وجد نفسه، في نهاية كفاح مشتت متعثر ضد الانتداب الانجليزي المتواطىء، وضد عصابات الهاجنا وشتيرن والارغون الصهيونية الارهابية ، وقد تزعزعت اسس حياته ، وفقد كل شيء : ارضه وكيانه بل وحتى هويته ..

على انه يكاد يكون من المؤكد ان كل ما يستطيع جيل النزوح ان يقدمه ، هو الخلفية العامة للصورة ، اما الخطوط والملامح والسمات فتظل غارقة في ضباب الظروف الجديدة ، التي نشأت في ايام الاغتراب الطويلة ، وهي ظروف تقع خارج نطاق خبرته . وفي الحقيقة يوجد ثمة فروق في طبيعة الوضع الانساني الجديد والاستثنائي لكل من الشقيقين بعد النكبة .

لقد خرج جيل النزوح من الارض تاركا وراءه كل شيء : مدنه وقراه وملاعب صباه ، لكنه حمل معه اشياء ثمينة : ماضيه وذكرياته وكل ما يلف هذه الذكريات من مرارات وخيبات ، ومن مشاعر مؤسية واشواق عارمة .. شيء اخر ثمين وعزيز حمله هذا الجيل في قلبه عند خروجه وهو حلم العودة .. ولقد يرد احيانا السؤال : كيف امكن لهذا الشعب المشرد ان يحتمل بؤس خيامه ومذلاتها طوال هذه السنين ؟ لكن سؤالا كهذا ينطوي على خطأ فادح ، فهذا الشعب لم يأت ليستقر ، ولا ليبحث عن الرفاهية ، بل وان هذا الواقع ، وهذا الحاضر ، وهذه الخيام ، لا اهمية لها الا بقدر ما تبقي على صلته بماضيه ، واحزانه ، وآماله . بل ان الحاضر لا اهمية له الا بمقدار ما للحظة الانتظار من اهمية ، لان الحقيقة هي ان حياة هذا الشعب تدور كلها في هذا النسيج من الذكريات والاحلام التي لا تيأس ولا تنضب .. ان الماضي هو سر حياة هذا الشعب ، وهو معجزتها التي الهمت الادب الفلسطيني في المهاجر ، وانضجت فيه حلم العودة .. وسواء في شعر ابي سلمى ويوسف الخطيب ومعين بسيسو وفدوى طوقان ، او في القصة الفلسطينية ، فان الرحيل الى الماضي ، حتى عبر حلم العودة ، يؤلف محور المشاعر الفلسطينية . وهذا الماضي هو المعادل الرمزي للوطن والكيان اللذين فقدهما الشعب . وبقدر ما يمكن ابقاء هذا الماضي حيا وفاعلا بقدر ما يمكن الاحتفاظ بحلم العودة مهما تمر الايام . واذا كان هذا الماضي ـ المعجزة يفسر لنا اصرار الشعب على العيش في الخيام طوال اكثر من عشرين عاما ، فهو يوضح لنا كيف تحول حلم العودة الى ارادة وفعل تجليا في ولادة حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة .

اما على الجانب الاخر حيث تمتد خيام المنفيين غير المرئية داخل اسوار الكيان الصهيوني الغريب والعدائي ، فان ما يواجه الفلسطيني المقيم هو بالضبط الغاء ماضيه وهويته العربيين الفلسطينيين، وتفريغ الحياة العربية من مضمونها . ان مجزرتي دير ياسين وكفرقاسم مستمرتان بصيغتهما المعنوية داخل هذه الاسوار ، والمهمة واحدة : الغاء الشخصية العربية الفلسطينية ، بل وأحيانا تعود المجازر المادية لتكمل اهداف المجزرة المعنوية ، فتهدم القرى وتسلب الاملاك بموجب قانون املاك الغائبين وقوانين الطوارىء والاحكام العرفية ولوائح الامن .. وفي مناخ الابادة المادية والمعنوية تنعدم البداهة والبساطة ويصبح كل شيء بحاجة الى التعليل والتبرير . فاحتفاظ الفلسطيني المقيم بماضيه وتراثه وتذكاراته وهويته العربية ، هو من المهام الصعبة والخطرة . انه مهمة نضالية اذا اردنا الدقة في التعبير. ولقد استطاعت هذه الجرائم الجماعية المنظمة التي تمارسها الصهيونية العنصرية ان تفرض الغربة والنفي على العرب المقيمين داخل وطنهم، ولكنها عجزت عن استئصال هويتهم العربية وولائهم لماضيهم واوطنهم العربي الفلسطيني .. ان فلسطين تحيا في عيونهم وقلوبهم . وهذا الولاء للوطن للماضي ، للقومية العربية هو ما يعبر عنه شاعر الارض

المحتلة المبدع محمود درويش في قصيدته «بطاقة هوية» ، حيث يصرخ في وجه الغاصب :

« سجل !
انا عربي
انا اسم بلا لقب
صبور في بلاد كل ما فيها
يعيش بفورة الغضب
جـذوري ...
قبل ميلاد الزمان رست
وقبل تفتح الحقب
وقبل السرو والزيتون
.. وقبل ترعرع العشب» . (ديوان اوراق الزيتون)

ومثل هذه الصرخة نسمعه يتردد بقوة وأصالة على لسـان شاعرين مبدعين اخرين من شعراء الارض المحتلة هما سميح القاسم وتوفيق زياد ، كما نسمع رجعه يتردد في رواية «سداسية الايـام الستة» للكاتب الفلسطيني المقيم اميل حبيبي (ابي سلام) ..

لقد كان من المؤسف الا نسمع هذه الصرخة التـي تجسد روح المقاومة لدى عرب الارض المحتلة الا بعد نكسة حزيران . وكان مـن المؤسف الا نعرف ان في الارض المحتلة ادبا يمكننا ان نتعلم منـه الكثير ، مثلما تعلمت منه شاعرتنا الكبيرة فدوى طوفان حينما ذهبت لتندب على اسوار يافا وتبكي على اطلالها :

«وقفت وقلت للعينين :
قفا نبك
على اطلال من رحلوا وفانوها ..»

فقد اجابها محمود درويش في قصيدته «يوميات جرح فلسطيني» معلمـا :

«نحن في حل من التذكار فالكرمل فينا
وعلى اهدابنا عشب الجليل
لا تقولي : ليتنا نركض كالنهر اليها
لا تقولي
نحن في لحم بلادي ، وهي فينا
لم نكن قبل حزيران كافراخ الحمام
ولذا لم يتفتت حبنا بين السلاسل
نحن يا اختاه من عشرين عام
نحن لا نكتب اشعارا ولكنا نقاتل ! »

وحقيقة الامر هي ان «الجماعة» كانت تقاتل .. فقد عاش ادباء الارض المحتلة قضية الشعب بمشاعرهم واحاسيسهم واعصابهم وتمثلوا روحه وبذلك استطاعوا ان يجسدوا في كلماتهم كفاحه اليومي المضني ومقاومته السلبية للاحتلال العنصري الاستيطاني . فمحمـود درويش وسميح القاسم يؤكدان معا انتماءهما العربي ويصران علـى الارتباط بالارض ومقاومة الهجرة منها . وتوفيق زياد يكاد لا يفرغ من كتابـة احتجاجاته على تصرفات السلطة العنصرية غير الشرعية ، وهـؤلاء جميعا لا يقفون عند حد توكيد انتمائهم العربي والارتباط بفلسطيـن وانما يتطلعون الى الشرق والى الشمال لربط المقاومة السلبيـة للاحتلال بالثورة الفلسطينية المسلحة بخاصة والثورة العربية بصورة عامة . ويجسد محمود درويش هذه المعاني في قصيدته «في انتظـار العائدين» :

«اكواخ احبابي على صدر الرمال
وأنا مع الامطار ساهر ..
وأنا ابن «عوليس» الذي انتظر البريد
من الشمال
ناداه بحار : ولكن لم يسافر
لجم المراكب ، وانتحى اعلى الجبال
ـ يا صخرة صلى عليها والدي لتصون ثائر
انا لن ابيعك باللآلي
انا لن اسافر ..
لن اسافر .. لن اسافر !
أصوات احبابي تشق الريح ، تقتحم الحصون
ـ يا امنا انتظري امام الباب ، انا عائدون»

تلك ملامح والوان من عالم الفلسطيني المقيم ، وهي ملامح تؤكـد الاحساس الدائم بالنفي والتشريد والاغتراب فوق ارض الوطن حيث تتحول الحياة اليومية الى بؤس وعذاب جحيميين دائمين ، وحيـث التمسك بالهوية القومية وممارسة الحقوق الانسانية العادية يتطلبان نضالا مريرا في اطار مجتمع يقوم في الاساس على الحقد والتمييـز العنصريين وممارسة الجريمة الجماعية . لكن المدهش والرائع حقـا هو انه في وسط هذا المناخ الوحشي تتفتح المقاومة السلبية كالزهرة الطيبة على الارض الفلسطينية ، لتعبر عن تمسك الفلسطيني المقيـم بهويته ووجدانه القومي وبكرامته وحقوقه الانسانية ، ولتعبر ايضا، من خلال التطلع الدائب الى الشمال والى الشرق ، عن وحدة المصير الفلسطيني وتلاحم الثورة الفلسطينية بشكليها : المقاومة السلبيـة والمقاومة المسلحة ، مع الثورة العربية الشاملة .

واذا كان شعراء الارض المحتلة : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد قد عبروا بالصورة الشعرية الناضجة عن المضاميـن والقيم الثورية والآمال الانسانية التي يجيش بها عالم الفلسطينـي المقيم ، فان اديبا فلسطينيا اخر من ادباء الارض المحتلة هو اميـل حبيبي (ابو سلام) المقيم في حيفا ، استطاع هو الاخر ان يجسد هذه المضامين في روايته الشهيرة «سداسية الايام الستة» التي نؤلـف موضوع هذا المقال .

والان ، وقبل عرض احداث هذه الرواية والتعليق عليها ، لا بد لنا من الوقوف قليلا امام الخصائص التي تمتاز بها هـذه الرواية . فعلى صعيد الشكل نجد ان السداسية تجمع بين شكلي الروايـة والقصة في معادلة فنية متماسكة . فهي ، من جهة ، تتألف من ست اقاصيص ، لكل منها موضوعه الخاص وبناؤه الفني المستقل ، لكـن هذه الاقاصيص تتسم ، من جهة ثانية ، بالوحدة والتكامل ، اذ هـي تدور حول موضوع رئيسي واحد هو ذلك التغيير الذي ادخلته نتائج حرب حزيران ، او حرب الايام الستة، على الحياة والعلاقات الانسانية والمشاعر الوطنية لدى الفلسطينيين ، هذا بالاضافة الى ان القاص او الراوية الذي يتولى سرد وقائع هذه الاقاصيص والتعليق عليها بـل والمشاركة في احداثها هو في الواقع شخصية واحدة تجسد ، علـى الارجح ، الضمير الفلسطيني العام في الارض المحتلة ، ومن ثم فهو يربط بصورة غير مباشرة بين هذه الاقاصيص ، ويضفي عليها الوحدة، وتبعا لذلك فان هذه الاقاصيص تعتبر بمثابة لوحات متكاملة في عمل روائي واحد يدور حول التغيير الذي ادخلته حرب حزيران على حياة الشعب الفلسطيني .

أما من جهة البناء الفني والتكتيك القصصي فنجد ان لكل قصة من هذه الاقاصيص التي اشتملت عليها الرواية فكرتها وحبكتها المستقلين . والكاتب يمزج فيها بين السرد والحوار والمونولوج مزجا ينم عن رواية واسعة بهذه الاساليب ، وان كان اسلوب السرد هو الغالب فيها . وهنا لا بد لي من الاشارة الى ان الكاتب قد اعتمد في صياغة اقاصيصه على الاطار العام للحكاية الفلسطينية الشعبية مع المحافظة على روح المعاصرة فيها ، وعلى الطابع الخاص الذي يميز هذا الكاتب ، وهذه مزية قل ان نجدها الا لدى الموهوبين من كتابنا الذين استطاعوا ان يؤصلوا القصة بربطها بالتراث الشعبي . وقد بلغ النجاح في الاعتماد على شكل الحكاية الشعبية حدا يجعل القارىء يتوهم لاول وهله انه ازاء كاتب يعتمد على رصيد احداث الحياة ونقل شرائح حية وامينة منها . الا ان الحقيقة هي غير هذا ، فابو سلام بعيد عن الواقعية الطبيعية . واذا كان لا بد من حشره في مذهب فان هذا المذهب هو الواقعية النقدية حيث ان مهمة الكاتب تتجاوز النقل من الواقع الى اعادة صياغة معطياته بما يساعد على تجسيد فكرته وآثارها . وفي اطار هذا التفسير لا بد من الاشارة الى ان لاقاصيص هذه الرواية مستويين :

١ ـ المستوى الواقعي البسيط والمباشر الذي يقدمه الحدث او الحبكة .

٢ ـ اما المستوى الثاني فهو المستوى الرمزي حيث تصبح الشخصيات والاحداث والعلاقات الفردية مجرد رموز الى قوى ومواقف وعلاقات اجتماعية او وطنية ، ويصبح الحدث بكل عناصره مجرد تعبير او صورة ادبية تجسد افكار الكاتب وتطلعاته .

والان ، بقي ان نتساءل : ما هي المسائل والتطلعات التي يعرضها ابو سلام في روايته هذه ؟

وكما ذكرت ، فان سداسية الايام الستة تستقي مادة موضوعاتها من الآثار النفسية والاجتماعية التي تركتها حرب حزيران ، او حرب الايام الستة ، لدى الشعب العربي الفلسطيني . لقد احدثت هذه الحرب تغييرات واسعة في مجرى حياة هذا الشعب ، فبعد عشرين عاما من الاشواق والآمال والانتظارات ، ومن التطلع الى يوم التحرير يجد فلسطينيو الارض المحتلة والضفة الغربية وقطاع غزة انفسهم وقد التقوا ثانية ، ولكن في ظل الاحتلال الاسرائيلي الجديد بدلا من اللقاء في ظل الوطن المحرر .. واية مفارقة دامية ؟! انها الاقدار وما يختفي تحت جلد هذه الاقدار من قوى معادية ومن ظروف وعوامل الهزيمة ، تتلاعب مرة اخرى بمصير وكرامة هذا الشعب .. ولكن كما نهضت المقاومة الفلسطينية المسلحة في لحظة من اسوأ اللحظات في التاريخ العربي لكي تعبر عن ارادة هذا الشعب وصموده اللذين لا يهزمان ، كذلك فان ابا سلام الذي يعرف عدوه معرفة جيدة ، ويعرف اكثر من هذا ، قضية شعبه وآماله الوطنية وتطلعاته الانسانية ، شأنه في هذا شأن بقية ادباء المقاومة في الارض المحتلة ، لم يغضب ، ولم ييأس ، وانما شرع في العمل متخذا من الواقع الانساني الجديد الذي خلفته الحرب وسيلة لعرض المضامين والتطلعات القومية والانسانية للمقاومة الفلسطينية في الارض المحتلة ، مؤكدا بحرارة على وحدة ارض الوطن الفلسطيني ووحدة الشعب الفلسطيني ، ومؤكدا ايضا على وحدة النضال الفلسطيني وتلاحمه مع النضال العربي ، وذلك بروح مشبعة بالتفاؤل النابع من الايمان بالشعب وبقضيته الوطنية العادلة وقيمه الانسانية .

ذلك هو ما يعرضه ابو سلام في سداسيته . ففي القصة الاولى التي تحمل عنوان «حين سعد مسعود بابن عمه» يصور لنا الآثار المعنوية المترتبه على اجتماع اجزاء الشعب الممزق بعد حرب حزيران والمشاعر الوطنية والانسانية المقترنة بها من خلال مشاعر صبي هو مسعود الملقب بـ «فجلة» والذي اكتشف بعد الحرب ان له ابناء عم واقرباء في الضفة . فجلة هذا كان يعيش مقطوع النسب في حي يغمره البؤس والكآبة ، فلا عم ولا خال .. وفجأة يصل عمه وابن عمه «سامح» قادمين من الضفة في سيارة مجنحة ول ان رأى الحي مثلها ، فيصبح فجلة مسعودا وتتبدل حياته بهذا الحدث ، فامه تعامله بفهم وعناية وتلبسه بدلة العيد ، وهو لم يعد يعاند امه ، ولاول مرة يضع اخوه الاكبر مسعد في جيبه بعض القروش ، ويتملك الزهو والخيلاء مسعودا ، فيتيه على أقرانه من صبيان الحي ، ولكن سرعان ما يشاع في الحي ان الحرب وقفت من جديد فترحل السيارة الفخمة في المساء ، ويعود مسعود «فجلة» . ولا ينقطع صلته بابن عمه بعد هذا ، لكن المسألة التي كانت تشغله دائما هي ما اذا كان سيعود بدون ابن عم حينما ينسحب العدو من الضفة ..

ولا ريب في ان فجلة هذا بنزعاته ومشاغله وهمومه انما يجسد الجيل الفلسطيني الجديد في الارض المحتلة . ان هذا الجيل الغارق في البؤس هو جيل ملتزم بقضية شعبه وهو يمارس المقاومة السلبية ضد الاحتلال كفجلة الذي كان يعمد الى تنفيس العجله اليمنى في سيارة الشرطة حين تقف قريبا من سور الاقباط .. كما انه جيل يدرك طبيعة الصراع العربي ـ الصهيوني وابعاده ، ولذلك فهو يطالب بانسحاب القوات الاسرائيلية المعتدية من الاراضي العربية التي احتلت حديثا ، وذلك رغم ان الانسحاب سيؤدي الى اغلاق الضفة وقطع اوثق الصلات الانسانية بين اجزاء الشعب الواحد .. حصيلة ذلك هي ان الجيل الفلسطيني الجديد في الارض المحتلة هو جيل المقاومة ، الذي يعي قضيته الوطنية ويضحي باعز الاشياء لديه في سبيلها .

القصة الثانية عنوانها «واخيرا نور اللوز» وفيها عرض لموقف فلسطيني متخاذل من الارض المحتلة هو الاستاذ «م» الذي ينتمي الى الجيل الذي عاصر النكبة ، وكان قبل النكبة متحمسا لعروبته ، منتصرا لكفاح شعبه ضد الانجليز . ولكنه بعد قيام اسرائيل تقطع صلاته باصدقائه ، ويتحاشى حتى توجيه التحية اليهم حينما يلتقي بهم محافظة منه على وظيفته كمدرس في المدرسة الثانوية بحيفا .. ومقتضيات المحافظة على الوظيفه في اسرائيل تحتم عليك كعربي «أن تنكر كل صلة بصديقك وبقريبك اذا كان من المشاغبين على السلطة ..». وهذا هو ما فعله الاستاذ «م» فهو لا ينكر لاصدقائه فحسب ، بل ولماضيه ، فنجده يكبت في وجدانه أحب وأجمل ذكرى ، ذكرى تلك الفتاة المقدسية التي التقى بها ذات يوم ربيعي قبل عشرين عاما في منعطفات طلعة اللبن بين نابلس ورام الله ، فتبادلا الحب وتواعدا على الزواج عندما يزهر اللوز في السنة التالية .. انه يسلم كل هذا الماضي الى النسيان .. واخيرا وبعد عشرين سنه يقع العدوان فتنفتح المنافذ ، ويذكر «م» وهو يمر بطلعة اللبن اثناء سفره الى القدس ان شابا من اصدقائه احب فتاة مقدسيه هنا ذات يوم .. ويدور على اصدقائه سائلا عمن يكون هذا الشاب ، بل ويلتقي في القدس بفتاته الاولى فتريه غصن اللوز الذي احتفظت به ذكرى لقائها الاول به .. ورغم هذا فهو لا يذكر ...

ولا ريب في ان هذه القصة موجهة الى القلة المتخاذلة من فلسطينيي الارض المحتلة الذين وضعوا مصلحتهم الشخصية فوق مصلحة الوطن ، فتنكروا لماضيهم وتراثهم العربي الفلسطيني ، وتناسوا ولاءهم لوحدة الوطن الفلسطيني العربي ووحدة شعبه مثلما تناسى «م» حبه الاول .

اما القصة الثالثة ، وعنوانها «ام الروبابيكا» ، فتتحدثنا عن تلك السيدة الملقبة بأم الروبابيكا ، والتي يلقبها راوية القصة بمالكة الوادي غير المتوجة ، انها تقيم في شارع الوادي في حيفا منذ النكبة ، حيث اصرت على البقاء مع والدتها المقعدة حين نزح زوجها واحد اولادهما معه . لقد تقول الناس الكثير عنها ، وغمزوا من سمعتها ، ولكن الراوية يدافع عنها بحرارة . اما هواية هذه السيدة فهي البحث في الدواشك القديمة عما تسميه بكنوزها ، ولذلك فهي تبحث عن

الدواشك ، تشتريها وتنكشها بحثا عن الكنوز ، ثم تعود فتبيعها .. اما كنوز ام الروبابيكا فهي تتحدث عنها : «لدي حزمات من انوار الصبا، رسائل الحب الاول . لدي قصائد خبأها فتيان بين اوراق كتب مدرسية . لدي أساور وافراط وغويشات .. لدي عقود تتعلق بها قلوب ذهبية اذا فتحتها وجدت في القلب الذهبي صورتين : له ولها. لدي يوميات ، بخطوط دقيقة حبيبة ، وبخطوط عريضة واثقة ، عن تساؤلات : «ماذا يريد مني ؟ وعن ايمان مغلظة : يا وطن !» .

ام الروبابيكا ، التي تثير فضول الناس ونساؤلاتهم ، والتي تنقب باحثة عن التذكارات الحبيبة ، عن الكلمات الفضة الحارة النابعة من اعماق القلب . عن قصائد غزل الفتيان ، والقلوب الذهبية التي تعلق في الصدور ، وعن كل ما يشد الناس بعضهم الى بعض ، والتي تعتبر الفلسطينيين كلهم ابناء لها ، ليست سوى فلسطين نفسها ...

واذا كانت القصتان الاولى والثانية تمتازان بالحبكة المتقنة وبناء الشخصيات المتماسك وتحليل مشاعرها فان «ام الروبابيكا» تمتاز باسلوب متطور اقرب الى القصة الحديثة ..

اما القصة الرابعة ، وهي بعنوان «العودة» ، فهي كالقصة السابقة تمثل تكنيكا اكثر معاصرة وتبتعد عن الحبكة التقليدية ، بل هي اقرب الى التكنيك السينمائي ، حيث تؤلف الكاميرا بين عدد من اللقطات المتباعدة في صيغة تركيبية تضفي عليها الوحدة والمعنى .. وفيها يقوم صحفي من الناصرة وهو راوية هذه الاقاصيص بالسير من ساحة المسجد الاقصى الى مقبرة اليوسفية ليزور ضريح لاجيء من الناصرة دفن فيها .. ويصحبه في مسيرته رجل مقدسي يعرفه بمعالم القدس القديمة .. حيث تضارب المشاكل والاحداث ، وتتمائل : مسيرة المسيحيين التقليدية الى الجلجلة في الجمعة العظيمة .. ومسيرة الوف الشبان والشابات الى مقبرة اليوسفية لوضع باقات الزهور على قبور الشهداء في ذكرى الخامس من حزيران .. ثم حوش الغزلان الذي هدمت بيوته في القدس ، وارض مراح الغزلان قرب الناصرة التي صودرت ، وبيوت الناس فيها مهددة بالهدم .. وتتعاقب هذه المماثلات وكلها تجسد وحدة مصير الشعب الفلسطيني. في الضفة والارض المحتلة قديما . وتتجلى هذه الوحدة في قصة حب تنشأ بين شاب من الناصرة وابنة الرجل المقدسي الذي يقوم بمهمة الدليل : ان هذا الحب الذي نشأ اثناء مظاهرة قامت في الناصرة ، وادى الى طرد الفتاة من المدرسة والى اعتقال الشاب بسبب اشتراكهما في مسيرة الخامس من حزيران ، هذا الحب يجسد ايضا وحدة النضال الفلسطيني الذي لا تكون العودة الا به .

اما قصة «الخرزة الزرقاء وعودة جبينة» فهي مقارنة رمزية بين اسطورة جبينة التي خطفها النور ثم عادت الى امها العمياء فارتد اليها البصر ، وبين قصة النازحة الفلسطينية التي رحلت مع زوجها واطفالها الى لبنان ثم عادت بعد عشرين عاما لتزور امها المقعدة ، فعادت الحياة الى الساقين المشلولتين .. هذه القصة هي ايضا تتابع حديث العودة الذي بدا في القصة السابقة .

وفي القصة السادسة والاخيرة «الحب في قلبي» مقارنة بين صورتين من صور الحرب والمقاومة .. الصورة الاولى ترسمها يوميات طفلة سوفياتية في السابعة من عمرها ، هي تانيا التي عاشت احداث الحرب العالمية الثانية . فقد جاء في هذه اليوميات : «اليوم ماتت جدتي ـ في الصباح لم يستيقظ اخي الصغير ـ علمت اليوم ان جارتنا ماتت ـ اليوم ذهبوا بامي النائمة ولم تعد ـ اليوم بقيت لوحدي» ويقال انهم وجدوا تانيا بين الخرائب ، وحاولوا انقاذها من الجوع، ولكنها لم تعش بعد ذلك طويلا ..

اما الصورة الثانية فترسمها رسائل فتاة مقدسية في الثامنة عشرة بعثت بها الى امها من سجن الرملة بعد هزيمة حزيران ، وقد جاء في احدى هذه الرسائل : «على فكرة . اذا وصلت هذه الرسالة اليكم قبل ان تأتوا لزيارتنا فارجو ان تطبخوا الدجاج مسخنا وليس محمرا بطلب خاص من شاعرتنا الحيفاوية التي تقول انها معنا ، حتى في هذا القاووش، تشعر الان انها في وطنها ـ ولا تنسي يا مامـا الشكولاته والبسكوت المحشو العربي وملبس من صناعة نابلس في كيس نايلون من الجنس الجيد ـ اهديكم اغنية : طول ما املي معايا والحب في قلبي ..»

لا ريب في ان التناقض فاضح .. والفرق فاضح بين فداحة وروعة المأساة في الصورة الاولى وبين رخص المشاعر واسفافها في الصورة الثانية .

واذا كانت الصورة تتردى وتتهافت على يد الفتاة المقدسية ، فان صديقتها الحيفاوية المعتقلة بتهمة الاتصال مع العدو تعيد الى الصورة طابعها الفاجع ، وايقاعها المأساوي . فهذه الفتاة تعبر عن مأساة شعبها بقولها : «انني اشعر انني لاجئة في بلاد غريبة ..» ولهذا فان وجود الفتيات المقدسيات معها يجعلها تشعر ، حتى في القاووش ، بانها في وطنها .. وابو سلام يلخص على لسان هذه الفتاة معنى الماضي بالنسبة للفلسطينيين المقيمين : «ما ان افكر بالمستقبل حتى يتراءى لي الماضي ، ماذا اقول لكن ؟ ان المستقبل الذي احلم فيه هو الماضي ...» . ثمة اذن مأساة فلسطينية جارحة ، تتراءى ابعادها بكاملها حينما توضح هذه الفتاة لصديقاتها انها لا تشعر بالوطن الا حين تجلس في الليل قبل النوم الى جانب والدتها على الفراش ، وتحدثها والدتها عما مضى من ايام حين كان اخوتها الستة في البيت .. هنا تتراءى لنا صورة تماثل في حدتها المأساوية صورة الطفلة تانيا ... وان ما قدم من نقد لموقف الفتاة المقدسية يستهدف حث الفلسطيني في الضفة الغربية على مضاعفة نضاله ضد الاحتلال الصهيوني ..

وبعد .. فتلك صورة رائعة من ادب المقاومة الفلسطينية ، وهي صورة تجمع بين حرارة «افول القمر» وعمق «صمت البحر» ولكن فلنتساءل مرة اخرى : هل اصبحنا نملك فكرة وافية عن عالم الفلسطيني المقيم ..؟ والجواب الذي اجده بعد قراءة سداسية الايام هو : نعم..

دمشق — سامي عطفة

في المكتبات

قاموس الاقتصاد

تجارة . صناعة . مالية . قانون

انكليزي ـ عربي

تأليف

جروان السابق

محاز في الحقوق

• أحدث وأوثق القواميس الاختصاصية الثنائية والأحادية اللغة

• معجم المحامي والأديب والمترجم والاستاذ والتاجر والاقتصادي ورجل الأعمال والموظف والاداة الضرورية في الشركة الصناعية والتجارية والمصرف والمدرسة والجامعة وكل بيت

ص.ب : ١٣٦٨ ، ت : ٢٢٢١٠٤
بيروت ـ لبنان